أبو زكريا يحيى الزواوي وزاويته .. الإنسان والمجال والمقدس

نذير برزاق
جامعة محمد بوضياف المسيلة، nadirelwartilani@gmail.com

الملخص :

حظيت بجاية بمكانة روحية خلال العصر الوسيط نظرا لمركزيتها الجغرافية وكذا طبيعة الوافدين عليها من علماء وأقطاب صوفية أصبغوا على الحاضرة خصائص ثقافية وروحية، ولعلّ أهم من بصم القدسية لبجاية بفضل أخلاقه وقيمه وآثاره المادية والمعنوية أبو زكريا يحيى ابن أبي علي المشتهر بالزواوي (ت 611هـ / 1215 م).

وظلت الرحال مشدودة إلى فضاءه المقدس المتمثل في: الزاوية، حيث حفظت لنا نصوص المصادر قُدسية المكان على مر الزمان، ونقلت لنا صور الزيارات وعرّجت على طبيعة الزوار مما يوحي على المكانة الروحية المقدّسة لزاويته.

لذا أسعى خلال هذه الورقة إضاءة زوايا معتمة عن الإنسان والمكان في بجاية خلال العصر الوسيط من خلال نصوص المصادر التي ترجمت للزواوي؛ والوقوف عند فضاءه المقدس المؤسس من طرفه والمؤنس له ولمن بعده: زاويته؛ حيث استأثرت بالاهتمام بها على طول خط الحقب التاريخية وفق منهج الأمد الطويل.

الكلمات المفتاحية: بجاية؛ أبو زكريا؛ الزاوية؛ القيم؛ المقدس.

Abstract:

Bejaia was highly considered during the medieval centuries; for not only its strategic geographic position but also for the quality of the visitors who were of a high rank. They were scientists and imminent sophist among them was Abu Zakariya Ibn Ali nicknamed « Zouaoui » (d 611 H) who marked the city of Bejaia by his behaviour, values and mainly his moral and material impact on the society. Many visitors converged to his Zaouia. According to some resources the « Zaouia » was of a great consideration thanks to Abu Zakariya.

I am attempting to illuminate some unknown aspects of this Zaouia in this great city during the era of medieval centuries through translated Zouaoui documents and stand on the sacred aspect of his schools which

was his creation to pave the way for the next coming generations. This is the core of my research and interest.
Keywords: Bejaia; Abu Zakariya; Zaouia; Values; Sacre

مقدمة:

البصمة الحضارية لحاضرة بجاية في العصر الوسيط نقلتها نصوص متنوعة ومصادر مختلفة أرّخت لواقعها خلال تلك الفترة وسجلت مركزيتها الجغرافية وسياستها الإستقطابية في جلب أسمى الأقطاب الصوفية وأجل العلماء من فقهاء ومتكلمة وغيرهم، ولعل ما يميزها هي تلك الصبغة الروحية والأحاسيس المعنوية التي اصطبغت حياتها بفضل صنيع أوليائها ممن عمت بركتهم هذه الحاضرة.

واعتبرت خلال الفترة الوسيطية فضاءا مقدّسا بفضل ما كانت تحتضنه من أطياف معرفية علوم وعلماء ساهمت في إعطاء الحاضرة خصائص ثقافية وروحية ظلت لصيقة ومعروفة بها تناقلتها المصادر على مر المراحل، ولعلّ أهم من منح القدسية لبجاية بفضل علمه وعمله وآثاره المادية والمعنوية تلك الشخصية الأنموذجية الممثلة في: أبو زكريا يحيى ابن أبي علي المشتهر بالزواوي (ت 611ه / 1215 م).

فذِكره ظل لصيقا ومقترنا مع فضاء مقدس حظي وقتئذ وبعدئذ بعناية واهتمام بالغين من مختلف أطياف المجتمع خاصتهم وعامتهم ألا وهي:زاويته؛ هذا المجال الذي كان بحق مكان مشحون بأطياف روحية وفيض وجداني حفظت لنا نصوص المصادر قُدسيته على مر الزمان؛ ونقلت لنا صور الزيارات وعرّجت على طبيعة الزوار مما يوحي على المكانة الروحية المقدّسة لزاويته .

لذا أسعى خلال هذه الورقة تقديم قراءة عن الإنسان والمكان في بجاية خلال العصر الوسيط من خلال نصوص المصادر النتفية التي عرّجت على مكانة الزواوي في نفوس البجائيين وقتئذ وفي المخيلة الجماعية بعدئذ للمجتمع بكافة أطيافه؛ وكذا فضاءه المقدس المؤسس من طرفه والمؤنس له ولمن بعده: زاويته؛ التي استأثرت بالاهتمام بها على طول خط الحقب التاريخية بعد تأسيسها بالخصوص.

ما مدى تأثير الإرث المادي الزواوي على الإرث المعنوي في ذهنية الإنسان البجائي؟

كيف ظل الحضور الرمزي المجالي للزواوي مستمرا عبر التاريخ عن طريق صيغة الأمد الطويل؟

وقفة منهجية: قراءة في المعطى السردي (المصادر) والمعطى النقدي (المراجع):

شخصية الزواوي لم تحض بذاك النصيب الأوفر من الترجمات بين دفات المستندات، ويعد حيز ذكره مقارنة مع مكانته ضيقا حتى وإن كان شاملا، بحيث لقي اهتماما من بعض المصادر وترجموا له بما أمكن لهم الوصول من معلومات؛ وكذا عرف لفتة من طرف بعض المراجع والأبحاث بتفكيكهم للمادة المصدرية وإبراز ملامح شخصية الزواوي وأهم وقفاته العلمية والاجتماعية والدينية، فإطلالتنا على المعطى السردي و النقدي لأبي زكريا الزواوي تمكن الباحثين من الإطلاع على الثبت الببليوغرافي لبيوغرافية الزواوي.

قراءة في المعطى السردي (المصادر):

المنقب في دفات المصادر يلاحظ أن ترجمة شخصية أبو زكريا يحي الزواوي لم تنقلها مصادر كثيرة إن لم نقل ما عدا مستندين مصدريين هما: **"التشوف إلى رجال التصوف"** لابن الزيات (ت617ه) وكذا: **"عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"** لأبي العباس الغبريني(ت704ه)؛ ويعد من أوائل المصادر التي ترجمت لشخصيته، وقراءتنا لهما بعملية المقارنة والمقاربة تسمح بإدراك أسبقيتهما في تغطية جوانب مهمة من سيرة الزواوي.

فبالمقارنة بين ابن الزيات المتوفي عام617ه/ 1220م و الغبريني المتوفي سنة 704ه/1314م ندرك أن أسبقية الذكر للزواوي كان من طرف ابن الزيات و الغبريني كان متأخرا ولعله اقتبس منه شيئا من تلك الترجمة، ولعل تخصص كتاب الغبريني عن حاضرة بجاية والتغطية الموسعة لشخصية الزواوي جعلت منه المستند الأولي في الرجوع من طرف الباحثين لاقتناص معالم شخصيته؛ فقد قدم لنا ترجمة وافية عن مختلف جوانب سيرته العلمية والاجتماعية، فتعد ملمة كافية لإدراك هذه الشخصية الفذة بما خصصه له من ترجمة مستقلة عنه

إضافة إلى نتف من المعلومات عنه في مواطن عدة من كتابه أثناء ترجماته لأعلام آخرين؛ مما يمكّن الباحث أثناء الاطلاع على كتاب عنوان الدراية من استجماع كل هذه البيانات البيوغرافية عن تكوين صورة واضحة الملامح والمعالم عن شخصية أبو زكريا يحي الزواوي، لكن كذلك حجم ترجمة ابن الزيات ونوعية المحطات التي رصدها للزواوي غنية معرفيا تمكن الباحث من الاستفادة منها.

أما بعملية المقاربة بينهما في ترجمتها للزواوي يمكن لنا إدراك نقاط تقاطع والتقاء وكذا نقاط - لا نقول اختلاف أو تباين- غياب، وفي المجمل يمكن لنا القول في نقاط الالتقاء والتشابه:

- تحلية الزواوي: اتصافه بالزهد والصلاح والورع.
- رحلته العلمية: إلى المشرق والعودة إلى المغرب.
- أسلوبه الوعظي: الترهيب والتخويف من الله مع مجموعة نصائح وإرشادات كانت تقدم للزواوي عن مبالغته في هذا الأسلوب ومطالبته بنوع من الترغيب من طرف الخاصة والعامة.

لكن بالنسبة إلى نقاط أخرى نجدها مغيبة عند أحد الطرفين:

فالتادلي نقل لنا ثلاث روايات لم تكن محل ذكر من طرف الغبريني: الأولى لأبي مدين شعيب ينصح الزواوي بعدم الإفراط في الترهيب وعدم التفريط في الترغيب؛ وأخرى لأحد الشهود الحاضرين لمجلس الزواوي يوما نصحه أحد الحاضرين برغبتهم في نوع من الترغيب؛ ورواية ثالثة صورت لنا عدم بقاء الزواوي حبيس كرسيه العلمي إنما ضرب أروع الأمثلة في التكافل الاجتماعي لصوفية بجاية بكراءه لفندق من أجل إيواء المساكين؛ وهذه الروايات الثلاثة مغيبة في نص عنوان الدراية، وبالنظر إلى عنوان الدراية نعثر على نصوص لم يرد ذكرها في التشوف وكفانا في حجم الترجمتين لإدراك هذا البون؛ فمن ناحية التحلية أطنب الغبريني فيها والمسار التعليمي رصده محطة محطة ومجالسه التعليمية ونوعية العلوم التي يدرسها وكذا تركيزه على أسلوبه الوعظي الترهيبي واختتمها بصورة يوم وفاته و جنازته مبرزا قيمته المعنوية في نفوس البجائيين خاصتهم وعامتهم وكل هذا قد أوسع الغبريني فيه الذكر والرصد.

هذا بالنسبة إلى مصدري التادلي والغبريني، إلا أن هناك من قدم لنا وفي فترة متأخرة جدا مصدر آخر قيّم بعض الجوانب عن حياة الزواوي وإن كانت مقتضبة من عنوان الدراية ألا وهو: "**نزهة الأنظار في فصل علم التاريخ والأخبار**" المشهور بالرحلة الورثيلانية للحسين بن محمد الورتيلاني (ت 1293ه\1879) إلا أنها نصوص حفظها لنا رغم أنها منقولة تؤكد لنا بها خلود ذكر الزواوي عبر الزمان نظرا لبقاء آثاره المادية وأجلّها: زاويته.

قراءة في المعطى النقدي (المراجع):

أما عن الدراسات البحثية المعاصرة وما كُتب عن حياة أبو زكريا يحي الزواوي فيبقى قليلا جدا إذا ما قورن مع أعلام آخرين لا ينقصهم مرتبة كأبي مدين شعيب وابن عربي، فهذان قد عُنِيَا باهتمام وبدراسات بحثية كشفت عن حياتهما بإسهاب، ولعل أهم دراسة عنيت بالحياة الصوفية وأقطابها ببجاية وعرّجت عن الزواوي نذكر دراسة الباحث الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6- 7ه / 12- 13م، فاتسمت بقوة الطرح والتنقيب في شخصية أبو زكريا أين استجلى صوفية الرجل وتأثيره وقتئذ وبعدئذ وكذا مساهمته في تثبيت دعائم العقيدة التومرتية، كما تعد دراسة الباحث عبد الكريم عزوق حول الآثار الإسلامية ببجاية بحث نقب فيه عن مختلف المعالم المادية ببجاية أين عرج في أطروحته على ضريح أبي زكريا الزواوي كما تحدث عن زاويته بدرجة أقل.

ملامح شخصية أبو زكريا يحيى الزواوي .. أنموذج القيم الصوفية:

بتتبع المسار الذي سلكه الزواوي حسبما نقله لنا الغبريني نلاحظ ثراء معرفي ونبوغ علمي بارز جعل منه يحتل مكانة مرموقة ببجاية خلال ق6- 7ه/ 12- 13م، ولعل الترجمة الكاملة له كافية لمعرفة المسار العام لحياة أبا زكريا، لذا سنقف عند أهم المحطات التي رصدت لحياته بقراءة صيغة الترجمة له، فتحلية الغبريني له تبين طابع الموسوعية وتغلب الصبغة الصوفية عليه: "الشيخ الفقيه الصالح العابد الولي الزاهد"(الغبريني، 2007: 61)، ونعته التادلي بقوله: "كان عبدا صالحا زاهدا ورعا"(التادلي، 1997: 428)، وأقر هذا ابن قنفذ حين عبر عنه بـ: "كان عالما صالحا زاهدا"(ابن قنفذ، 1965: 27)، فهذه

النعوت القيمية تكشف تضلع الزواوي وتبحره في علوم الشريعة والحقيقة وتضفي عليه المسحة الصوفية، وكان لرحلته العلمية أثر في تكوين شخصيته بمن لقيه من أفاضل ومجالس استفاد منها انعكست على مر زمان استقراره واستيطانه ببجاية: "وأول أمره بقلعة بني حماد على الشيخ الصالح أبي عبد الله بن الخراط"(الغبريني، 2007: 62) ثم "ارتحل إلى المشرق"(التادلي، 1997: 428) وبعدها " استوطن بجاية وجلس بها لنشر العلم وبثه فانتفع الخلق على يديه"(الغبريني، 2007: 62)؛ وما ذاك الكرسي العلمي الذي تبوأه بالمسجد الأعظم ببجاية إلا لدليل قاطع على المكان العالية التي حظي بها حتى عاد معروفا بعلمه ومألوفا بأخلاقه:" وكان له كرسي بجامع بجاية"(ابن قنفذ، 1965: 27) و"كان يجلس لعلوم الحديث ولعلوم الفقه ولعلوم التذكير"(الغبريني 2007 ص 62)، فكل هذه النتف تؤكد ذاك الباع المعرفي الذي برع فيه وبثه في مجتمع بجاية من خلال كرسي ومنبر مسجده والجامع الأعظم.

جانب آخر سلطت عليه المصادر الضوء في شخصية الزواوي وهو أسلوبه الوعظي الذي عرف به: الترهيب؛ لما رآه من واقع الحال المرير ببجاية(أنظر التعليق رقم 1)، ويعود هذا إلى نزعته الصوفية التي دفعته في كثير من الأحيان إلى اعتماد هذا الأسلوب(خلفات مفتاح، 2011: 275)، فقد كان:"شديد الخوف من الله"(التادلي، 1997: 428) و"كان الغالب عليه الخوف"(الغبريني، 2007: 62) و"كان كثير الخوف من الله وكثير التخويف للناس"(ابن قنفذ، 1965، 28)، هذا ما جنا عليه تلك الالتماسات من طرف خاصة وعامة المجتمع للتخفيف من وطأة التخويف واستبدالها بالرجاء والترغيب على نحو نصيحة أبي مدين له:"حدثني أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأنصاري قال: سمعت أبا مدين يقول لأبي زكريا: لا تقنط الناس وذكرهم بأنعم الله، فقال له أبو زكريا: لا أقدر إلا على هذا"(التادلي، 1997: 428)؛ وحجته النقلية في ذلك أن:"الله جبل الخلق على أنهم لا ينفعلون غالبا إلا بالخوف ولأجل هذا كان أكثر الشريعة تخويفا ومازال مستمرا على هذا الحال إلى يوم وفاته"(الغبريني، 2007: 62)، وحجته الواقعية العقلية:"أنكم تشاهدون المناكر فلا تغيرونها"(التادلي، 1997: 428)، كذلك زاوية أخرى من حياته كانت محل رصد المصادر وهي: الجانب

الإنساني والاجتماعي فيه، فلم يبق رهين مجلسه وكرسيه العلمي بل ضرب أروع الصور في اندماجه مع المجتمع ومعايشته في آماله وآلامه؛ فأجزل العطاء والبذل وقدّم خدمة عظيمة وصورة جليلة في التكافل والتعاون ومساعدة الطبقات الدنيا من مجتمعه وإخراجهم من براثن الفقر والتهميش، فكان يعتمد على نفسه في مصادر عيشه:"ما كان عيشه إلا من المباح كالبقول المطروحة وما جرى مجراها وإذا اشتهى اللحم ينزل إلى البحر فيصيد السماك على الأحجار وهي لحمة "(الغبريني: 2007، 62)، وموقف إنساني يبرز اهتمام الصوفية بمظاهر التكافل الاجتماعي حين:" اكترى فندقا كبيرا بنحو ثلاثمائة دينار ... ثم مشى في الطرقات ببجاية فكلما مر بمسكين دفع له ما يقيه وقال له: اذهب إلى الفندق الفلاني فلما اجتمع المساكين بالفندق اشترى لهم من اللباس ما يدفع عنهم البرد واشترى لهم ما يقوم بهم من الطعام"(التادلي، 1997، 429).

فمن خلال ثنايا هذه النصوص يمكن لنا أن نعتبر الزواوي: "المثال الأكمل للزاهد المترفع عن الأمور الدنيوية والمنهمك في التفكير في اليوم الآخر"(برنشفيك روبار، 1988: 335)؛ كيف لا وهو: "من إخوان الشيخ أبي مدين"(ابن قنفذ، 1965: 27) اللذان يمثلان صوفية كبار تزعما العقيدة التومرتية ومثّلاها في كل من بجاية وتلمسان خلال القرنين -6و7ه/12و13م(بونابي الطاهر، 2004: 89)، فكان الزواوي بحق يمثل التصوف الصرف في بجاية إلى جانب أبي مدين أثناء حياته وبعد وفاته(برنشفيك روبار، 1988: 335).

زاوية أبو زكريا يحيى الزواوي: مجال تاريخي بين هدايات السماء وجواذب الأرض.

ثمة مقتطفات عدة في ثنايا ترجمة الغبريني لأبي زكريا تكشف وجود زاوية خاصة بالزواوي يهرع إليها ويخلو بنفسه فيها: "ثم دخل زاويته" و "خرج على الناس من زاويته" و "أدخلناه زاويته" و "سمعنا في الزاوية"(الغبريني، 2007: 63)؛ كل هذه العبارات تؤكد قيام الزاوية ووجودها ببجاية خلال ق6ه/12م، لذا يعد كتاب عنوان الدراية أول مصدر يحدثنا عن ظهور الزاوية مقدما لنا مواصفاتها والتي تبدو أنها كانت عبارة عن بناء صغير ملحق بمسجد يقوم فيها

بالتعبد والخلوة بمفرده(بونابي الطاهر، 2004: 223)؛ وهذا ما ذهب إليه الباحث عبد الكريم عزوق في بحثه عن الآثار الإسلامية ببجاية حين أكد أن الزاوية كانت موجودة في حياته والراجح أن يكون حدوثها أواخر ق6ه/12م في شمال إفريقيا بعد ظهورها في المشرق(عزوق عبد الكريم، 2013: 117)، فذكر هذه الزاوية كان عرضيا جاء في سياق الحديث عن شخصية يحي الزواوي إلا أن في ذلك أهمية بما كان؛ لأن هذا يقدم لنا تاريخية الزوايا بالمغرب الأوسط ونشوئها أين ضمت ضريحه بعد وفاته وبقيت مسجدا للعبادة فأضحت بذلك مؤسسة اكتست أهمية بالغة(برنشفيك روبار، 1988: 335) استمدت قيمتها من طبيعة مؤسسها الذي اتسم بالتعلق بالآخرة ونبذ الدنيا، فزاوج في مسار حياته بين متطلبات السماء وحقوق وواجبات الأرض.

المقدّس في بجاية : الإنسان والمجال .. الحضور المادي والاستحضار المعنوي .

- **قراءة الحضور التاريخي بالأمد الطويل -**

استأثرت شخصية أبو زكريا باحترام وتبجيل وتقديس؛ فكان في فترة حياته أنموذج الإنسان الصوفي؛ متسما بأخلاق صوفية راقية تسامت به إلى علياء بتركه للدنيا والانقطاع للآخرة وقيامه وصيامه واعتماده على نفسه في معاشه وتكفينا كراماته التي:"أكثر من أن تحصى ولو كتبت لكانت مجلدات وأحواله كلها كرامات"(الغبريني، 2007: 62)، ولعل ما يبين بجلاء الحمولة الرمزية لشخصية أبو زكريا هي خبر جنازته كما رواها لنا الغبريني ما ينم عن تلك الرتبة السامية التي يحتلها في نفوس البجائيين: "فتسابقوا إليه وحشروا من كل ناحية عليه ... وعزى الناس بعضهم بعضا"(الغبريني، 2007: 64)، فهذا منح للزواوي التعالي المطلق من قبل الخاصة والعامة، فكان له نصيب من محظية التقديس لأن قداسة الإنسان تتوقف على مقدرته في العطاء الرمزي؛ ولأن المقدس محوره الإنسان ومصدره الدين؛ فالإنسان يستلهمه من الدين ويقوم بتفعيله ليشمل بإشعاعه الفضاء(خالد محمد، 2000: 71)؛ هكذا كان أبو زكريا يحي الزواوي؛ فقد غلّب على نفسه البعد الأخروي على الدنيوي فأضحت بركته وقدسيته إرثا خاصا لذاك المجال الضيق والواسع؛ ضريحه ومسجده

خاصة وكذا بجاية عامة، وبهذا أصبح المجال مثل المؤسِّس موضوعا للمخيلة الفردية والجماعية جذر به مؤسسه - الزواوي - ذكره على مر فترات التاريخ بعده.

المُقدّس: صناعة بشرية أم منحة ربانية.

البحث عن مثل هذه الصفة المعنوية في الإنسان والمجال تجعل الباحث في عملية استنباطها وتأكيدها يعتمد على قراءتها بمنهج الأمد الطويل باعتبارها حسية غير عينية وبعدية غير حينية، لكن صناعة بشرية أم منحة ربانية؟

وما جعلنا نطرح هذه الجدلية هو ذلك التبجيل البشري والمعتقد الديني الذي صحب ويصحب تلك الذات عبر المكان والزمان فتحظى باحترام وعناية وحب تقرب وتعلق بها مما يكسبها رأسمال رمزي شريفي ينعكس على المخيلة الفردية والجماعية، بالإضافة إلى تلك المجاهدات للذات للارتقاء بنفسها إلى علياء وتخطي المجال الدنيوي إلى السماوي طمعا في منح ربانية تضفي على النفس الطمأنينة وتلقى محظية الرضا، وكل هذا غدا من ذهنية إنسان العصر الوسيط الإسلامي ، ولعل أهم فئة اجتماعية انغمست في هذا: المتصوفة.

ظاهرة الاعتقاد في الصوفية والتبرك بهم كانت تحكمه جدلية المحنة والمنحة، والطبقة الدنيا هي أكبر شرائح المجتمع التي ترى منهم المخرج والمنقذ من أزماتها الاجتماعية والاقتصادية أملا في تحقيق المآرب وتفريج الكروب(بونابي الطاهر، 2004: 173)، وسلطة الولي التي صحبته في حياته استمرت بعد وفاته؛ ففي حياته يقصد هو بشخصه أما بعد وفاته فيقصد قبره للدعاء فيه والتبرك ب(أعزيبي زهوة، 2014: 11)، فهؤلاء هم فئة من الأشخاص المقدسين نسبيا يجري تبجيلهم لأنهم وعاء طاقة روحية(شلحت يوسف، 2004: 128)، لذا تقديس الولي حيا أو ميتا ظل متمثلا في الذاكرة والمتخيل الفردي والجماعي للمجتمع البجائي(أعزيبي زهوة، 2014: 11).

ولعل لنا في عبارة بالغة الأهمية نقلها لنا الغبريني يبرز لنا المعتقد الديني في الأولياء والصوفية بالمغرب والمشرق الإسلاميين حين قال: " والدعاء عنده (عند قبر أبي مدين شعيب) مستجاب وهو أحد المعالم التي عرف بالتجربة استجابة الدعاء عندها وكذلك قبر الشيخ أبي زكريا يحيى الزواوي ببجاية وقبر الشيخ

أبي مروان اليحصبي ببونة وقبر معروف الكرخي ببغداد"(الغبريني، 2007: 11)، فهذا الاعتقاد في استجابة الدعاء عند قبور الأولياء غَدَا من ذهنية إنسان العصر الوسيط الإسلامي بل امتد هذا التأثير واستمر حضوره في التاريخ إلى يومنا هذا.

ومعالم حضور المقدس في المجال يتجلى من خلال الأضرحة والزوايا على اعتبار أن المؤسس (الولي) منح لفعل التأسيس طابعا قدسيا فأصبح المجال متماثلا مع الإنسان ويستقي منه قدسية، بهذا استمرت قدسية الإنسان (الزواوي) بفعل حضور المجال (الزاوية والضريح) حتى وإن اختفى الإنسان (الزواوي) من الوجود(الزاهي نور الدين، 2005: 36)، لذا ظاهرة التبرك بالأولياء وقبورهم ظلت حاضرة وسائدة في أوساط البجائيين خاصتهم وعامتهم فـ: "قبر أبو علي حسن المسيلي بباب أمسيون والدعاء عنده مستجاب وهو مجهول في قبور هنالك ثلاثة أو أربعة لا يعلم أيها هو من بينها لكن المتبرك يتبرك بجميعها ليوافق المقصود منها"(الغبريني، 2007: 15)، في حين كان الفقيه أبا عبد الله محمد بن ابراهيم الوغليسي "يجلس إزاء قبر الشيخ أبي علي المسيلي يتبرك به" وكان "مقصد أحد موحدي إفريقية "(الغبريني، 2007: 18)كذلك، و "قبر أبو محمد عبد الحق الإشبيلي خارج باب المرسى وهو من القبور المزورة المتبرك بها وكثيرا ما رأيت الطلبة يقرءون تآليفه عند قبره"(الغبريني، 2007: 20)، وكذا وصية أبو الحسن علي بن محمد الزواوي لأولاده:"لا عليكم مهما أصابكم أمر أو عارض فأتوا إلى قبري واذكروا شكواكم واسألوا الله أن يفرج عليكم ومازال أولاده بعده مهما عرض لهم عارض يفعلون ذلك فيجدون نفعه"(الغبريني، 2007: 61).

ولا غرابة أن ظاهرة التبرك كانت متوارثة حتى بين المتصوفة أنفسهم فمركزية واستراتيجية أبو زكريا يحي في نصب زاويته خارج باب المرسى له ما يبرره؛ فقد أقام مسجده إزاء " قبر (أبو عبد الله العربي) بخارج باب المرسى وعليه وضع رباطه ملتمسا بركته ومجاورا ضريحه النير وتربته "(الغبريني، 2007: 65)، لذا انتماء المجال لدائرة المقدس تبتدئ مباشرة بعد حلول المقدس فيه(الزاهي نور الدين، 2005: 35)، فرواية الغبريني هذه تؤكد لنا أن أبا

زكريا قبل أن يتسم بطابع التقديس قد سبق بفعله – التأسيس لزاويته – تجسيد ظاهرة التبرك بالقبور كيف لا وهو الذي اختار موضع زاويته بجوار قبر أبي عبد اللّه العربي، بهذا تجلّت القداسة في الإحساس الروحي والتعلق القلبي والجاذبية المعنوية إلى قبر أبي عبد اللّه العربي من طرف يحيى الزواوي وكذا بضريح أبي زكريا من قِبَلِ غيره.

المسجد – الزاوية - الضريح: المقصد الثلاثي .. تبرك أم زيارة ؟

ثمة قدسية لأبي زكريا حيا وميتا، فقد كان محل اهتمام ومقصد من طرف الخاصة والعامة فـ:"ما من ناحية من النواحي إلا وله فيها مسجد ومعلم وكلها معروف البركة"(الغبريني، 2007: 62)، فقد أَسَّسَ لنفسه زاوية للخلوة ومسجدا للعبادة وأُسِّسَ له بعد وفاته ضريحا دفن فيه بزاويته ما جعل اندماج الثلاثة الممثلة للعناصر المجالية بالعناصر القدسية يشكل مركبا رمزيا مشحونا بالقداسة(الزاهي نور الدين، 2005: 36)؛ وبالأخص ضريحه؛ الذي يعد من أضرحة بجاية التي كان لها دور مهم في مسيرة الحاضرة الحضارية والثقافية(عزوق عبد الكريم، 2013: 94) كيف لا وهو الذي أضحى يحظى بإجلال مواطنيه الذين حرموا من ضريح أبي مدين(برنشفيك روبار، 1988: 335).

لذا هناك تقديس لهذا المكان (الزاوية ، الضريح) بفضل الزواوي المؤسس لقناة تصريف القدسي في المجال، فأضحت هويته هي ذاتها هوية المجال وإطارا لحضوره الدائم(الزاهي نور الدين، 2005: 36)، فاستمرت قدسية الإنسان (الزواوي) بفعل حضور المجال (الزاوية والضريح)، وما يدعم طرحنا هذا روايات تاريخية نقلتها لنا مصادر عدة توثق مدى الاستمرارية المعنوية لأبي زكريا يحي في نفوس ليس مجتمع بجاية فقط بل في مخيّلة مجتمع المغرب الإسلامي عامة على مر فترات التاريخ، شفيعنا في ذلك شخصية الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي التجيبي (ت638هـ/1241م) حين قدومه بجاية: " أراد الجلوس بمسجد الفقيه أبي زكريا الزواوي، ولما حلّ به منعه المؤذن من ذلك وقال له: هذا الموضع محترم ولا يتكلم فيه إلا عن أمر فقال له: يأذن الفقيه في ذلك ويقع الكلام إن شاء اللّه ثم سار إلى قبر الشيخ أبي زكريا وصلى في

مسجده ركعتين وجلس عند قبره المبارك وتحدث ... "(الغبريني، 2007: 73. ابن الطواح، 1995: 89) وكان هذا في ق7ه/13م، ضف إلى ذلك رواية أخرى تعود إلى ق8ه/14م تؤكد مقام الزواوي بين قامات بجاية الصوفية وهي للنميري في استعراضه لخط سير السلطان أبو عنان نصها:"بعد رؤيته (أبو عنان) لهذا البرج (برج اللؤلؤة) الشامخ بناؤه وإشرافه منه على البحر الذي كادت تساجله وتكاثره جوده وخباؤه خرج على باب المرسى قاصدا زيارة ضريح الشيخ الصالح الولي سيدنا أبي زكريا الزواوي فوفى حق زيارته وصلى العصر بمسجده المبارك الذي حكمت السعادة بعمارته"(النميري، 1990: 267).

وحتى في زمن متأخر جدا نعثر على نتف من النصوص تقوي طرح حضور مظهر القداسة وسيلان مفعولها للإنسان (الزواوي) والمجال (الضريح) ولعل أبرزها تعود إلى ق18م في رواية للحسين الورثلاني أثناء مروره ببجاية استعدادا لرحلة الحج وزيارته له: " ثم توجهت لزيارة الشيخ أبي زكريا يحي الزواوي وقد كان في ق6ه وقبره مشهور"(الورثلاني، 1974: 23)، ورواية أخرى تعود إلى ق19م للحفناوي يقول فيها أثناء ترجمته لأحمد بن معمر البجائي:"ثم توجهت لزيارة الشيخ أبي زكريا يحيى الزواوي وقد كان في القرن السادس وقبره مشهور"(الحفناوي، 1906: 82)، كذلك رواية أخرى هي للقرن20م في تلك الدراسة التاريخية للباحث المستشرق برنشفيك عن إفريقية في العهد الحفصي ففي معرض حديثه عن الأضرحة والقبور قال عن قبر الزواوي:"إلى يومنا هذا مازال قبره يزار بكثرة ...وكان الناس يزورون قبور الصلحاء خارج باب المرسى الذي يبدو أنه كان يمثل بالدرجة الأولى الحي الديني في ق13م"(برنشفيك روبار، 1988: 415).

فهذه الروايات كلها رصدت لنا استمرارية المجال (الضريح – المسجد – الزاوية) في الحمولة الرمزية؛ لأن الزاوية كانت حاملة لرأسمال رمزي قدسي روحي معنوي تمثل في شخصية الصوفي أبا زكريا يحي الزواوي وقبله ابن عربي الذي أسس على مَعلمه (قبره) مَعلمًا أكثر شمولية واتساعا (زاوية ومسجد ثم ضريح)(أنظر التعليق رقم 2).

لذا بخط الاستعراض هذا للروايات التاريخية بالأمد الطويل الموثّقة للاستمرارية المعنوية والمادية للزواوي والضريح عبر مختلف فترات التاريخ يتأكد لنا أن لكل مجال قدسي تاريخ وفي نفس الوقت لا يصبح المجال قدسيا إلا في اللحظة التي يصبح فيها من دون تاريخ؛ فالمجال المقدس له تاريخ بالمعنى الذي يفترض فيه وجود مؤسِّس أي نقطة بداية في الزمان تسمى لحظة التأسيس؛ وليس له تاريخ بالمعنى الذي يصبح فيه هذا الأخير لحظة تحيينية وتكرارية دائمة للحظة التأسيس(الزاهي نور الدين، 2005: 36).

خاتمة: المقدس يُعدُّ صفة معنوية لموصوف مادي غلب على حياة خاصة ومجتمع المغرب الأوسط والإسلامي عامة و بجاية خاصة غُرس في المخيلة الفردية والجماعية لذهنية إنسان العصر الوسيط وحتى بعده.

وما أبو زكريا يحي الزواوي إلا واحد من أبرز أساطين التصوف حظي بتبجيل وتقديس في حياته وبعد مماته، وانعكست حياته الصوفية على المجال الذي أسسه (الزاوية و المسجد) باستقطاب الكامة والكافة بل زاد المجال قداسة بفعل الضريح ما أكسبه حمولة رمزية اتسمت بالاستمرارية المعنوية والمادية.

التعليقات:

1- اضطلع أبو زكرياء بالدور الدعوي ضمن نطاق مجاله المكاني والزماني، حيث كان شديد الحرص على تغيير المنكرات المتفشية في واقع مجتمعه (سحنون ربيعة، 2012: 121).

2- بالتنقيب في عبارات الروايات نعثر على ذكر المقصد الثلاثي: زاوية – مسجد – ضريح (قبر)؛ مما يؤكد أن قصد خاصة وعامة المجتمع لهذا المجال له ما يبرره لكن هو ما لا نجزمه بالنظر إلى اكتفاء الروايات بمصطلح الزيارة دون ذكر التبرك

القائمة البيبليوغرافية:

- أعزيبي زهوة، (2014). " المنظومة القيمية للمجتمع البجائي من خلال كتاب عنوان الدراية للغبريني". **ملتقى دولي حول: " الذكرى الـ 700 لوفاة العالم الغبريني "**، جامعة بجاية، بتاريخ: 18- 19 نوفمبر 2014.
- بونابي الطاهر، (2004). **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6- 7ه/12-13م**، الجزائر: دار الهدى.

- برنشفيك روبار، (1988). **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن 15م**، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- الورثلاني الحسين بن محمد، (1974). **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، لبنان: دار الكتاب العربي.

- الزاهي نور الدين، (2005). **المقدس الإسلامي**، المغرب: دار توبقال.

- الحفناوي أبو القاسم محمد، (1906). **تعريف الخلف برجال السلف**، الجزائر: مطبعة بيير فونتانة الشرقية.

- ابن الطواح، (1995). **سبك المقال لفك العقال**، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- النميري ابن الحاج، (1990). **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، لبنان: دار الغرب الإسلامي.

- سحنون ربيعة، (2012). **منهج الإمام الجنيد في السلوك وخصائص الممارسة الصوفية بالمغرب**، وجدة: دار أبي رقراق.

- عزوق عبد الكريم، (2013). **الآثار الإسلامية ببجاية**، الجزائر: مؤسسة الضحى.

- ابن قنفذ أبو العباس أحمد، (1965). **أنس الفقير وعز الحقير**، الرباط: مطبعة أكدال.

- شلحت يوسف، (2004). **بنى المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده**، بيروت: دار الطليعة.

- التادلي أبو يعقوب يوسف بن يحيى، (1997). **التشوف إلى رجال التصوف**، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.

- خالد محمد، (2000). "المقدس والعنف في التجربة الصوفية". **مجلة إنسانيات**، الجزائر، مج1 (ع11)، ص.ص.67- 76.

- خلفات مفتاح، (2011). **قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط مابين القرن 6- 9 ه / 12- 15م** – دراسة في دورها السياسي والحضاري، الجزائر: دار الأمل.

- الغبريني أبو العباس أحمد، (2007). **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، الجزائر: دار البصائر.